



(٣٤٩) - (٣٦٠)

العدد الثاني عشر

دلالة (خَلَفَ - أَمَّ - بَيَّعَ) في الاستعمال القرآني بين المعنى اللغوي

والتوجيه السياسي ، دراسة دلالية

أ. د. يعقوب يوسف الياسري ، م. ناطق نجم الزركاني

جامعة ذي قار / كلية التربية للعلوم الانسانية ، جامعة واسط / كلية التربية الاساسية

nnajim@uowasit.edu.iq

dr.yaqoob.yosif.alyassri@utq.edu.iq

المستخلص :

سنحاول في هذا البحث أن نطل على الفكر السياسي في القرآن ونستجلي بعض المفاهيم السياسية بالاعتماد على مجموعة من الألفاظ القرآنية ، إذ إننا يمكننا أن نؤصل للفكر السياسي ونبدل عليه من خلال ورود كلمات وتكرارها في القرآن الكريم ، وهذه الكلمات تحمل بعداً سياسياً واضحاً سواءً أكان ذلك البعد السياسي فهم في مرحلة النزول أم فهم في عصر الورد إلينا ، وسنعمد إلى المزوجة بين اللغة والاستعمال القرآني وأفهام المفسرين كي نصل إلى قناعة أن هذه المفردة أو تلك تحمل شحنات سياسية لا يمكن إنكارها ، ويختار البحث مجموعة من الكلمات .

الكلمات المفتاحية : الخلافة ، الامام ، البيعة

The significance of (behind - or sell) in the Qur'anic usage between linguistic meaning and political direction, a semantic study

Prof. Dr. Yaqoub Youssuf Khalaf Alyassiri Natiq Najm Abdullah Alzirgani

University of Wasit / College of Education for Human Science

University of Wasit / College of Basic Education

nnajim@uowasit.edu.iq

dr.yaqoob.yosif.alyassri@utq.edu.iq

Abstract

In this research, we will try to look at the political thought in the Qur'an and clarify some political concepts by relying on a group of Qur'anic words, as we can root political thought and prove it through the occurrence



and repetition of words in the Holy Qur'an, and these words carry a clear political dimension, whether that dimension The political was understood in the stage of descent, or was it understood in the era of its arrival to us, and we will combine the language and use of the Qur'an and the interpretations of the interpreters in order to reach a conviction that this or that word carries political charges that cannot be denied, and the research chooses a group of words.

Keywords : Succession , Imam , allegiance

التمهيد (مقدمات تأسيسية)

١ - الخلافة : مادة (خلف) :

ذكر الرَّاعِب الأصفهاني (ت ٤٢٥ هـ) ((أَنَّ الخِلافةَ : تعني النَّبِيَّةَ عن الغير ، إمَّا لغيبة المنوب عنه وإمَّا لموته ، وإمَّا لعجزه ، وإمَّا لتشريف المُسْتَخْلَف ، وعلى هذا الوجه الأخير : استخلف الله أوليائه في الأرض)) (مفردات الفاظ القرآن : مادة (خلف) : ٢٩٤) .

وذكر الجوهري أَنَّ (الخليفة) يعني السُّلْطَان الأعظم والجمع (الخلائف) ، ويقال خلف فلان فلاناً ، وإذا كان خليفته ، يقال خلف في قومه خلافة (ينظر : الصحاح الجوهري : مادة (خلف) : ٣ / ١١١٨) .

لقد استعمل القرآن الكريم مادة (خلف) بدلالة النَّبِيَّةَ عن الغير ، إمَّا بصيغة (خليفة) إذ استعملها مرتين : الأولى : مع آدم (عليه السلام) ، قال تعالى : ((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)) (البقرة : ٣٠) ، والثانية : مع النَّبِيِّ داوود (عليه السلام) ، قال تعالى : ((يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)) (ص : ٢٦) ، واستعملها بصيغة (خلائف) في أربعة موارد .

قوله تعالى : ((وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)) (الانعام : ١٦٥) .



وقوله تعالى : ((ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)) (يونس : ١٤)
وقوله تعالى : ((وَجَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَدْرِبِينَ))
(يونس : ٧٣) .

وقوله تعالى : ((هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ)) (فاطر : ٣٩)
وجاءت بصيغة الفعل مرّة واحدة , قال تعالى : ((وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)) (النور : ٥٥) .

وبالنظر إلى مجموع هذه الآيات يتضح أنّ الخلافة مقام سامٍ وعظيم , فوجود الخليفة مرتبط بالجعل
الإلهي سواءً أكان ذلك تكويناً أم تشريعاً , وتظهر مكانة الخليفة بشكل أوضح إذا مضينا مع الرأي
النفسيري القائل أنّ الخليفة مستمرّ بذلك لأنّه يخلف الله سبحانه وتعالى , وذلك في قوله تعالى :
((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)) (البقرة : ٣٠) .

فالسباق يشعر - كما ذهب الطباطبائي - بأنّ الخلافة المذكورة كانت خلافة الله تعالى لا
خلافة نوع من الوجود الأرضي كانوا في الأرض قبل الإنسان (ينظر: الميزان: ١١٧/١).
فهذا المخلوق سواءً أكان شخص آدم أم النوع الإنساني , هو خليفة الله في أرضه يحكم بالحق
(ينظر : مجمع البيان : ١ / ١٣١) .

فسؤال الملائكة بشأن هذا الموجود الذي قد يفسد في الأرض ويسفك الدماء يعدّ دليلاً سياقياً لفظياً
, لأنّ نيابة الله في الأرض لا تتناسب مع الفساد وسفك الدماء (ينظر : الأمثل : ١ / ١٠٦) .
وبهذا فاصطلاح (خليفة) يعدّ ((من أشرف الأوصاف الروحانيّة , وأعلى المقامات الربّانية , ولا
يتصوّر مقام أعلى وأفضل منه)) (التحقيق في كلمات القرآن : ٣ / ١٢٣) .

وبهذا يتّضح أنّ لفظة (الخليفة) تحمل دلالات دينية , ولكن هل هذه اللفظة تحمل دلالات
سياسية ؟

من الواضح أنّ المفسرين فهموا على أنّ هذه اللفظة هي من المصطلحات الجامعة ؛ لأنّ القرآن
استعملها بدلاً من لفظ الملك والسّلطة والإعارة والولاية, وإنّ اجتناب المفسرون توظيف هذه
المصطلحات ليحافظ مصطلح الخلافة على الدلالات الدّينية والسياسيّة معاً .

ومن الطبيعي أنّ تستبطن لفظة (الخليفة) دلالة سياسيّة ؛ لأنّ الخلافة نحو من التدبير لشؤون
النّاس , والتدبير هو عين السّياسة , وهذا ما فهمه المفسرون حين أطلق القرآن لقب (الخليفة)
على النّبّيّ داود (عليه السلام) : ((يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ



بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)) (ص : ٢٦) ، قال الرّازي : ((جعلنا خليفة من تقدّمك من الأنبياء في الدّعاء إلى الله وفي سياسة النّاس)) (مفاتيح الغيب: ٢٦ / ٣٨٦) .

ونقل الألوّسي (ت ١٢٧٠ هـ) عن الشّيخ محيي الدّين بن عربي (ت ٥٤٣ هـ) أنّ الخليفة من الرّسل من فوّض إليه التّشريع (ينظر : روح المعاني : ١٢ / ١٧٩) ، وهذا يعني أنّ الخليفة منوط به وظائف تشريعية ، والسياسة جزء من التّشريع ، فلا يبقى عندئذ مقام (الخليفة) مقاماً روحانياً فحسب ، بل إنّ سياق آية : ((يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ)) تنبئ بذلك ، إذ انه قال بعدها ((فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ)) ، فجاء بقاء التّفرّيع بأنّ أمره بأن يحكم بين النّاس بالحق ((الدّلالة على أنّ ذلك واجبه وإنه أحقّ النّاس بالحكم بالعدل ، ذلك لأنّه هو المرجع للمظلومين ، والذي تُرفع إليه مظالم الظلمة من الولاة)) (التحرير والتنوير : ٢٢ / ٢٤٣) ، وهذا ما فهمه الطّباطبائي من وجود فاء التّفرّيع قال : ((وهذا يؤيد أنّ المراد بجعل خلافته من القوة إلى الفعل في حقه لا مجرد الخلافة الشّأنية ، لأنّ الله أكمله في صفاته وآثاره الملك يحكم بين النّاس)) (الميزان : ١٧ / ١٩٦)

لقد مثّلت لفظة (الخليفة) بعداً سياسياً ، والدليل على ذلك أنّ هذه اللفظة تمخضت عنها رؤية سياسية في نظرية الحكم تبناها المعاصرون وفي طبيعتهم السيّد محمّد باقر الصّدر في نظريته خلافة الأمة وشهادة الأنبياء .

٢ - الامام : مادة (اَمَّ) :

تحمل هذه اللفظة بعداً سياسياً ، وهذا البعد السياسي مستبطن من دلالتها اللغوية ، فالإمام في اللغة كل من اقتدى به ، وقدم في الأمور ، والنّبويّ (صلى الله عليه وآله وسلّم) إمام الأئمة ، والقرآن إمام المسلمين (ينظر : معجم مقاييس اللغة ، مادة (اَمَّ) : ١ / ٢٨) .

وذكر الرّاعب الأصفهاني أنّ الإمام هو ((المؤتم به انساناً كان يقتدي بقوله ، أو فعله ، أو كتاباً أو غير ذلك محقاً كان أم مبطلاً ، وجمعة أئمة)) (مفردات الفاظ القرآن : مادة (اَمَّ) : ٨٧) ، وهذا ما ذكره صاحب المصباح المنير ، فالإمام هو ((الخليفة ، والإمام العالم المقتدى به ، والإمام من يؤتم به في الصّلاة)) (المصباح المنير : مادة (اَمَّ) : ١ / ٢٣)

إنّ دلالة الاقتداء والائتمام ، وما يتوجه إليه ، ويقصد هي الدّلالة التي أخذت قيدياً في استعمالات لفظة الإمام في القرآن الكريم سواءً أكانت بصيغة المفرد أم بصيغة الجمع .



إنَّ من المتسالم به أنَّ (الإمام) في الاستعمال القرآني يمثِّل مرجعية دينية أنبسطت بها مسؤوليات معينة ، وهذا واضح بدليل إنَّ القرآن عدّه منصباً إلهياً ، فهو بحسب التعبير القرآني (جعل إلهي) قال تعالى : ((وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ)) (الانبياء : ٧٢) ، وقال تعالى : ((وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)) (القصص : ٥) ، وقال تعالى : ((وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)) (السجدة : ٢٤) ، وطلب الإمامة منه ونيها يُعد أمنية المؤمنين ودعائهم ، وقال تعالى : ((وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا)) (الفرقان : ٧٤) ، فالمؤمنون سألوا الله ((أن يجعلهم قُدوة يقتدي بهم المتقون ، وهذا يقتضي أنهم يسألون لأنفسهم بلوغ الدَّرجات العظيمة من التَّقوى ، فإنَّ القُدوة يجب أن يكون بالغاً أقصى غاية العمل الذي يرغب المهتفون به الكمال فيه ، وهذا يقتضي أيضاً أنهم يسألون أن يكونوا دعاة للدُّخول في الإسلام ، وأن يهتدي النَّاس إليه بواسطتهم)) (التحرير والتنوير : ١٩ / ٨٣) .

وبدا لفظ (الإمام) بوصفه منصباً إلهياً أكثر وضوحاً في العظمة والمكانة حينما جعله الله منصباً للنَّبِيِّ إبراهيم (عليه السلام) ، قال تعالى : ((وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)) (التحرير والتنوير : ١٩ / ٨٣) ، وبمقاربة هذه الآيات مع الآيات الأخرى التي ورد لفظ (الأئمة) في سياقها دفعت اتجاهها لدى المسلمين - وهم الشَّيعة الإمامية - يتبنون فكرة أنَّ الإمامة في القرآن الكريم تشكّل بعداً عقائدياً محورياً ، وإلى تبني منهاجاً قرآنياً يتولى طرح بحوث حول نظرية الإمامة من حيث حقيقتها وشروطها ومواصفاتها ومهام الإمام ومسؤولياته وفق أسس ومنطلقات فكرية خاصة به (ينظر : منهاج بحث الامامة بين النظرية والتطبيق ، السيّد كمال الحيدري : ٢٤) ، فمن خلال تتبع آيات الإمامة تبين ألاتي :

١ - إن الإمامة عهد إلهي ، وجعل ربّانيّ ، ونصب منه سبحانه وتعالى ، قال تعالى : ((وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً)) ، وقال : ((قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)) ، ومن هنا فمقام الإمامة كالرِّسالة والنُّبوة من حيث أنّها بيد الله سبحانه وتعالى (ينظر : منهاج بحث الامامة بين النظرية والتطبيق ، السيّد كمال الحيدري : ٢٥) .



٢- إنَّ الإمامة لا بدَّ فيها من عنصرين مرتبطين ببعدين في شخصية الإنسان ، هما : البعد العملي ، وهو الصبر ، والبعد العلمي ، وهو اليقين ، وهذا ما أوضحتها الآية القرآنية : ((وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)) (السجدة : ٢٤) ، فينبغي للإمام أن يكون مزوداً بهذين العاملين ، فهو على مستوى العمل متوشَّح بالصبر ، وعلى مستوى العلم متجلى باليقين وباستقراء النصوص القرآنية لهذين الوصفين ، يتبين أنَّهما لا يصل إليهما إلا الأنبياء والمقربون ، والصالحون ، ولا يتصف بهما الشَّخص إلا ضمن شروط ومواصفات إلهية خاصة (ينظر : العصمة بحث تحليلي في ضوء المنهج القرآني ، السيِّد كمال الحيدري : ٥٤ وما بعدها) ، إذ عمد الحيدري إلى إجراء بحث قرآني بيِّن فيه دلالة وجود هذين الوصفين للإمام ، ونتائج وجودهما في شخصية الامام .

٣- إنَّ وظيفة الإمام مرتبطة بالهداية ، فكما تعرَّض القرآن لمعنى الإمامة تعرَّض معها للهداية ، وبهذا فالإمام هادٍ يهدي بأمر ملكوتي يصاحبه ، وبهذا تكون الإمامة ولاية للنَّاس في أعمالهم ، وهدايتها إيصالها إياهم إلى المطلوب بأمر الله دون مجرد إراءة الطريق الذي هو شأن النَّبيِّ والرَّسول ، وكل مؤمن يهدي إلى الله سبحانه وتعالى بالموعظة والنُّصح والحسنة (ينظر : الميزان في تفسير القرآن : ١ / ٢٦٧ - ٢٦٨) .

وحين تكون الإمامة واصطلاح الإمام وفقاً للاستعمال القرآني بهذه المواصفات ، وبحجم هذه المسؤوليات الكبيرة التي تناط به ، فمن الطبيعي عندئذ أن يترشح عن هذه المسؤوليات البعد السِّياسي والجنبه السِّياسيَّة في لفظ (الإمام) ، فالإمامة بوصفها ((نظرية تكوينية ، وتعبير أدق جزءاً داخلياً في نظام التَّكوين ، عهدت فيه إلى الإمام مهام أساسية منها إيصال كل إنسان إلى ما يستحقه من الكمالات المطلوبة مع ما يمليه هذا الموقع من ضرورة أن يكون الإمام مطلعاً على الكمالات الوجودية ، وعلى كل درجات الوجود وعلى الشؤون البشرية في المعاش والمعاد)) (بحث حول الامامة ، السيِّد كمال الحيدري : ١٣١) ، فمن الطبيعي أن لا يهمل البعد السِّياسي وقيادة الأُمَّة التي تستلزم اصطلاح لفظ (الامام) في الاستعمال القرآني .

فالإمامة تكتسب أبعاداً ثلاثة هي : بيان الإسلام كنظرية متكاملة ، وتجسيد تلك النَّظرية علمياً ، وحفظ معارف القرآن التي جاء بها النَّبيُّ من الأعراف ، وهذه الأبعاد التي تتحرك فيها الإمامة على هذا الصعيد داخله في البعد السِّياسي ، أو متداخلة معه (لبحث حول الامامة ، السيِّد كمال الحيدري :



وعليه فلفظ الإمام في الاستعمال القرآني ، والإمامة فيه ((تعني تحقيق المناهج الدينية بما في ذلك منهج الحكم بالمعنى الواسع للحكومة ، وأجراء الحدود وأحكام الله ، وتطبيق العدالة الاجتماعية ، وتربية الأفراد في محتوهم الداخلي ، وسلوكهم الخارجي)) (الامثل في تفسير كتاب الله المنزل : ١ / ٢٤٣) ، واتضح أنّ الإمامة بحسب المنهج القرآني ، وبحسب فهم الشيعة الإمامية غدت نظرية سياسية في الحكم .

٣- البيعة : مادة (بيع) :

هذه اللفظة مشتقة من مادة (ب ي ع) ، والبيع هو إعطاء المثلث وأخذ الثمن ، وبإيع السلطان إذا تضمن بذل الطاعة له ، ويقال لذلك بيعة ومبايعة (ينظر : مفردات ألفاظ القرآن مادة (بيع) : ١٥٥) ، وقال ابن منظور (ت ٧١١ هـ) : ((الصّفقة على إيجاب البيع ، وعلى المبايعة والطاعة ، وقد تبايعوا على الأمر ، كقولك أصفقوا عليه ، وبإيعه عليه مبايعة ، عاهد)) (لسان العرب ، مادة (بيع) : ١ / ٥٥٧) ، وفي المعجم الوسيط ((البيعة هي التولية وعقدها)) (المعجم الوسيط : مادة (بيع) : ٧٩) فالأصل الواحد في هذه المادة ((هو المعاقدة ومبادلة مال بمال أي المعاملة الواقعة بين البائع والمشتري)) (التحقيق في كلمات القرآن : مادة (بيع) : ٣٩٣ / ١) .

وعليه فالبيعة والمبايعة التي نحن بصددنا مأخوذ فيها قيد المعاملة ، كونها نوع معاملة ومعاقدة ومبادلة (التحقيق في كلمات القرآن : مادة (بيع) : ٣٩٣ / ١) ، لذلك قال ابن الأثير (ت ٦٠٦ هـ) : ((إنّ البيعة عبارة عن المعاقدة عليه والمعاهدة ، كأن كل واحد منهما باع ما عنده من صاحبه ، واعطاه خالصة نفسه ، وطاعته ودخيلة أمره)) (النهاية في غريب الحديث والاثر ، ابن الأثير : ١ / ١٧٤) والبيعة في الاصطلاح ، فهي ((العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يتم النظر في أمر نفسه ، وأمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكروه ، وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد)) (تأريخ ابن خلدون : ١ / ٨٦) ، وقال القلقشندي : ((البيعة هي أن يجتمع أهل الحل والعقد ويعقدون الإمامة لمن يجمع شرائطها)) (مآثر الاناقة في معالم الخلافة ، القلقشندي : ٣٩ / ١)

ومن هنا أصبحت البيعة في الاصطلاح السياسي تعني : ((عقد وتعهد من ناحية المبايع على أن يطيع لمن بايعه ، ويمتثل أوامره ، ويلتزم فيما بايعه عليه ، ولا يتخلف عن أمره)) (انوار الفقاهة ، ناصر مكارم الشيرازي : ٥١٧ / ١) .



لقد استعمل القرآن الكريم هذه المادة بصيغ متعددة، وفي كل استعمال كان قيد المبادلة والمعاقدة مأخوذاً بعين الاعتبار ، والذي يهمننا في هذه الاستعمال ، الموارد التي تحمل هذه المادة بعداً سياسياً ، وهذا ما يمكن ملاحظة في الموارد التي تحدثت عن وقائع البيعة التي تمت بين المسلمين والرَسُول (صلى الله عليه واله وسلم) في أكثر من مناسبة ، ومنها قوله تعالى : ((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)) (الممتحنة : ١٢) .

وقوله تعالى : ((إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنَّا أَجْرًا عَظِيمًا)) (الفتح : ١٠) .
وقوله تعالى : ((إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)) (التوبة : ١١١) .

فقد أخبرت هذه الآيات عن بيعات للمسلمين ، ومنها بيعة النساء ، وكذلك بيعة الرضوان التي تمت قبيل صلح الحديبية ، فالبيعة في مفهومها السياسي ، يمكن أن تنطبق على هذه البيعات التي وردت في هذه النصوص القرآنية ، فالبيعة صيغة في بناء العلاقة السياسية بين طرفين ، وعرف البيعة شأنه شأن باقي الأعراف ، لم يبق بعيداً عن أخلاقيات الإسلام وتوجهاته ، والبيعة بوصفها تعاقداً بين طرفين ، من المفروض أن تسري عليها أحكام العقود وأخلاقياتها التي جاء بها الإسلام .

لقد تعامل التراث التفسيري والفقهي مع (البيعة) على أنها واحدة من أنواع العقود ، وبنوا مفهوماً سياسياً وفقاً لذلك ، وهي قائمة على مبدأ الالتزام الذي يقتضي وفاء المحكومين من الناحية السلوكية بالطاعة والامتثال في ((البيعة نوع من العقد والمعاهدة بين المبايع من جهة والمبايع من جهة أخرى ، ومحتواها الطاعة والاتباع والدفاع عن المبايع ، ولها درجات طبقاً للشروط التي يذكرونها فيها)) (الامثل في تفسير كتاب الله المنزل : ١٦ / ٢٩٤) ، ومضمون الآيات القرآنية بين (أن البيعة نوع من العقد اللازم من جهة المبايع ، ويجب العمل طبقاً لما بايع عليه ، ويكون مشمولاً بالقانون الكلي (أوفوا بالعقود) .

إنَّ المعطيات اللغوية والدلالية التي وظفت في آيات البيعة تبين اهتمام القرآن بها ، وتعظيمها ، والتأكيد على الالتزام بها ففي آية سورة الفتح : ((إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ



أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا)) ((الفتح : ١٠) تظهر لنا هذه المعطيات واضحة :

١- فقوله تعالى : ((إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ)) ، فالحصر المستفاد من (إنما) حصر الفعل في مفعوله ، أي لا يبايعون إلا الله ، وهو قصر ادعائي ، بادعاء أن غاية البيعة وحرصها هو النصّر لدين الله ورسوله ، فنزل الغرض منزلة الوسيلة ، فادّعى أنهم بايعوا الله لا الرسول ، فجاء الحصر تأكيداً على تأكيد (ينظر : التحرير والتنوير : ٢٦ / ١٥٧) ، فهذه الجملة تعظيم لهذه البيعة التي يكون فيها الله هو الطرف المبايع .

٢ - وقوله تعالى : ((يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)) التوكيد لما قبله وتوثيق لأمر هذه البيعة (ينظر : بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، د. فاضل السامرائي : ١٠٤) ، فهي مقدرّة لمضمون قوله ((إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)) المفيدة أن بيعتهم النبي (صلى الله عليه واله وسلم) هي بيعة منهم لله في الواقع ، فجعلت اليد المتخيلة فوق أيديهم ، لأنّ إضافتها إلى الله تقتضي تشريفها بالرفعة على أيدي الناس (ينظر : التحرير والتنوير : ٢٦ / ١٥٨) .

٣ - حذر القرآن من نكث هذه البيعة : ((فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ)) ، والنكث هو النقض ، والكلام فيه تحذير من نكث هذه البيعة ، وتقضيح له (ينظر : التحرير والتنوير : ٢٦ / ١٦٠) .

٤ - ذكر د. فاضل السامرائي أنّ اختيار الضمة على الضمير ((ومن أوفى بما عاهد عليه)) جاء منسجماً مع ثقل هذه البيعة (العهد) وعظمتها ، ذلك ؛ لأنّ الضمة هي أثقل الحركات فجاءت للدلالة على ثقل هذه البيعة ((فناسب أن يأتي بأثقل الحركات وهي الضمة مجانسة لثقل هذا العهد)) (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : ١٠٤) .

وذكر د. فاضل السامرائي أنّ ((الضمة ينطق معها لفظ الجلالة بتفخيم اللام بخلاف الكسرة ، فانها ينطق معها لفظ الجلالة بترقيق اللام ، فجاء بالضم ليتفخم النطق بلفظ الجلالة إشارة إلى تفخيم العهد ، فناسب بين تفخيم الصوت وتفخيم العهد ، وهو تناظر جميل)) (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : ١٠٤) .

إنّ هذه المعطيات اللغوية والدلالية والتي تجد نظائر لها في نصوص البيعة الأخرى تؤكد عناية القرآن واهتمامه بهكذا نوع من العقود ، وهي كما عرفنا ذات بعد سياسي وبذلك نعرف أن هذا الاصطلاح (البيعة) له دور أساس في ترسيخ الفكر السياسي في القرآن الكريم .



لقد حاول المعاصرون إعطاء أبعاد سياسية للبيعة تتجاوز البعد السياسي التاريخي ، فرأى بعضهم أنها تقترب من فكرة الانتخابات بصيغتها السياسية المعاصرة ، ورأى بعض الباحثين أن البيعة بمفهومها القرآني تمثل تفويضاً للنبي (صلى الله عليه واله وسلم) بقضايا محددة سياسية أو اجتماعية ، وأنّ البحث في سياقاتها التاريخية يعزز أن للبيعة مفهوماً عرفياً وبشراً عقلاً ، بمعنى أنّ القرآن لم يعترف رسمياً بسلطة غير السُّلطة الرُّمزية والعرفية فسياقات التّاريخ لبيعات المسلمين ، ومنها بيعة أهل المدينة تعني أنهم اختاروا النَّبِيَّ (صلى الله عليه واله وسلم) حاكماً عليهم ، ومنحوه تلك السُّلطة الأرضية والعرفية والدنيوية ، والنَّبِيُّ بدوره لم يدع أنّ ماهية حكومته تمثل تجسيدا لسلطة إلهية تجسدت على الأرض ، وقد كان النَّبِيُّ يتعاطى مع القضايا بأسلوب عقلائي متعارف في ذلك العصر ، وكان يمارس حكومته وما يتصل بها من حروب وغنائم ومشورة مع رؤساء القبائل كلها على أساس القواعد العرفية المتداولة في ثقافة ذلك العصر وأصحاب هذه الرؤية يرون أن حاكمية النَّبِيِّ التي فوّضت إليه من النَّاس لم تكن سوى سلطة عرفية من خلال الاعتماد الذي أولاه النَّاس إياه عبر آلية البيعة حيث شكّلت حكومة دنيوية نبوية في ذلك العصر ، وقد مارس النَّبِيُّ (صلى الله عليه واله وسلم) سلطته واختياراته ضمن تدابير عقلائية في تلك الأجواء ، ومنها المسائل التي تتصل بالشورى في ذلك الوقت (ينظر : قراءة بشرية للدين ، د. محمّد مجتهد الشبستري : ٢١٩ - ٢٢٠) . فأصحاب هذه الرواية يفرقون بين كون النَّبِيِّ محمّد (صلى الله عليه واله وسلم) نبياً ورسولاً يبلغ النَّاس بتعاليم السَّماء ، وبين كونه حاكماً ورئيساً لمجتمع يدير شؤونه وفق آليات بشرية عقلائية ، ولهم في ذلك تفصيلات دقيقة من أجل التمييز بين هاتين الوظيفتين لا يسع المقام لإيرادها في قبال هذه الرؤية المعاصرة تمسك جمهور علماء المسلمين على أن هذه المبايعات بصيغتها القرآنية كانت نوعاً من التأكيد على الوفاء ، وقد أدت في ظروف خاصة في مواجهة الأزمات والحوادث الصعبة لتنبض في ظلها روح جديدة في الأفراد كان لها تأثيرها المذهل عليهم ، وإلا فإن النَّبِيَّ (صلى الله عليه واله وسلم) لا حاجة له للبيعة ، لأنّ لازم مقام النبوة وجوب الطاعة وفقاً لما قرر القرآن الكريم (ينظر : الامثل في تفسير كتاب الله المنزل : ١٦ / ٢٩٤ - ١٩٥) .

والبحث لا ينوي الدخول في هذه الجدلية بين الرؤيتين ؛ لأن ذلك يخرج البحث عن مساره ، لكنه أفاد من هذا الجدال الدائر أن عزز القناعة في كون لفظ (البيعة) يمثل مفتاحاً لرؤى سياسية ، والدليل هو ما تركه هذا المصطلح القرآني من أثر في إنتاج جدل فكري سياسي بين الفرقاء .

الخاتمة والنتائج :



بعد هذه الرحلة المضنية مع (دلالة) (خَفَ - أَمْ - بَيَعَ) في الاستعمال القرآني بين المعنى اللغوي والتوجيه السياسي، دراسة دلالية) أحمد المولى جل شأنه الذي ذلّل بكرمه كل الصعاب وسهّل بحوله كل عسير، وأختتم هذه المسيرة البحثية بأهم ما توصلت إليه من نتائج:

تعدّ آية الإمامة الإبراهيمية من أقوى الأدلة لصالح نظرية الإمامة إذ إنّ الآية أثبتت بشكل واضح وصريح أنّ الإمامة جعلت إلهيًّا، وإنّها منصب ربّاني لم يترك في اختياره لتقديرات الإنسان و تدبيراته، والصّلاحيات الممنوحة للإمام بحسب البنية التركيبية لهذه الآية تكشف ضمناً أنّ الإمام له وظائف دينية وسياسية، وبذلك صلحت الآية أن تكون دليلاً قوياً لصالح منظري الإمامة السياسيّة على وفق النّص القرآني، وقد لحظ البحث أنّ المقاربات اللغوية والدلالية في بنية هذا النّص القرآني كان لها من الوضوح لدرجة أنّ عدداً من مفسري أهل السنّة رضخ وأذعن لعدد من متبنيات أصحاب نظرية الإمامة، كالقول بعصمة الإمام، وهذا ما لحظناه عند فخر الدين الرّازي.

إنّ أغلب آيات القرآن السياسي التي بُنيت عليها الأفكار والأفهام السياسيّة هي في الواقع تمثل اجتهادات وتأويلات أصحابها، إذ جرى التّنظير لها في مراحل متأخرة، فلم يكن المسلمون الأوائل صحابة ومفسرين ومتكلمين يتعاطون مع هذه الآيات والنصوص بمنظور سياسي، على الرّغم من أنّهم مارسوا السياسة وعاشوها ونظروا لها لكن كلّ ذلك كان بمعزل عن النّص القرآني، فلم يطلبوا مشروعية ممارساتهم السياسيّة من النّص القرآني إلّا في مراحل متأخرة، سوى ما وجدناه من إشارات وتلميحات مبنوثة هنا وهناك.

مثلت فكرة شمولية الشريعة المؤسس لها قرآنيّاً أصلاً موضوعاً وقاعدة تحتية انطلق منها الباحثون للتدليل على وجود فكر سياسي قرآني بعكس الاتجاه الآخر الذي انطلق من قاعدة عدم شمول الشريعة وعدم كفاية الأدلة للانطلاق لنفي وجود فهم سياسي للنّص القرآني.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

١. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، الأميرة، بيروت - لبنان، ط ٣، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٩ م
٢. أنوار الفقاهة، ناصر مكارم الشيرازي، ١٢٠١ هـ - ق
٣. بحث حول الإمامة، حوار مع السيد كمال الحيدري، مؤسسة الهدى للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م



٤. بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، د . فاضل صالح السامرائي ، شركة العاتك لصناعة الكتاب ، ط ٢ ، القاهرة ، ٢٠٠٦ م
٥. تأريخ ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمّد بن خلدون (٨٠٨ هـ) اعتنى به : الأستاذ خليل شحادة ، دار الفكر ، بيروت (د . ت)
٦. التحرير والتنوير ، محمّد طاهر بن عاشور (ت ١٣٩٢ هـ) الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٨٤ م
٧. التحقيق في كلمات القرآن ، حسن مصطفوي ، مركز نشر آثار العلامة المصطفوي ، طهران ، ط ١ ، ١٣٨٥ هـ
٨. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، شهاب الدين محمّد بن عبد الله الالوسي (ت ١٢٧٠ هـ) ، تحقيق : علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٥ هـ
٩. الصّاح ، أسماعيل بن حمّاد الجوهري (ت ٣٩٨ هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م
١٠. العصمة بحث تحليلي في ضوء المنهج القرآني ، محاضرات السيد كمال الحيدري ، دار فراق ، ط ١٠ ، ١٤٢٤ هـ
١١. قراءة بشرية للدين ، د . محمّد مجتهد الشيبستري ، ترجمة : أحمد القبانجي ، دار الفكر الجديد ، النجف الأشرف ، ٢٠٠٧ م
١٢. لسان العرب ، ابن منظور الإفريقي (ت ٧١١ هـ) دار صادر ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤١٤ هـ
١٣. مآثر الاناقة في معالم الخلافة ابو العباس القلقشندي ، (ت ٨٢٠ هـ) تحقيق : عبد الستار احمد فراج ، مطبعة حكومة الكويت ، ط ٢ ، ١٩٨٥ م
١٤. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، أحمد بن محمّد بن علي الفيومي (ت ٧٧٠ هـ) المؤسسة الحديثة للكتاب ، طرابلس - لبنان ، (د . ت)
١٥. معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ) ، تحقيق : عبد السلام هارون ، دار الفكر ، ١٩٧٩ م
١٦. المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، دار الدعوة
١٧. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) ، فخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ) دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٢٠ هـ
١٨. مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني (ت ٤٩٥ هـ) ، تحقيق : صفوان عدنان داوودي ، إنتشارات نوي القري ، ط ٤ ، ١٤٢٥ هـ
١٩. مناهج بحث الإمامة بين النظرية والتطبيق ، محاضرات السيد كمال الحيدري ، بقلم الشيخ محمّد جواد الزبيدي ، مؤسسة الإمام الجواد للفكر والثقافة ، ط ٧ ، ١٤٣٣ هـ
٢٠. الميزان في تفسير القرآن ، محمّد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) مؤسسة الأعلمي ، بيروت - لبنان ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

JOBS



مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science



Print -ISSN 2306-5249

Online-ISSN 2791-3279

العدد الثاني عشر

٢٠٢٢م / ١٤٤٤هـ

٢١. النهاية في غريب الحديث والأثر ، مجد الدين أبي السعادات المبارك بن الأثير (ت ٦٠٦ هـ) دار ابن الجوزي

ط ١ ، (د . ت)



مجلة العلوم الأساسية
للعلوم التربوية والنفسية وطرائق التدريس للعلوم الأساسية